

الفن الصوفي بين الابداع الفني والسجال الديني

Sufi art between artistic creativity and religious polimic

الزين عبدالحق

جامعة وهران 2 محمد بن احمد (الجزائر)، ezzine1991@yahoo.com

تاريخ النشر: 2022/07/31

تاريخ القبول: 2022/05/05

تاريخ الاستلام: 2021/08/27

الملخص:

نسعى في هذه المداخلة إلى تقديم عرض عن ماهية الفن الصوفي، نشأته وتطوره وتجلياته من خلال تقديم بعض النماذج بغرض توضيح حدود التماس بين ما هو فني وما هو ديني، باعتبار ان الفن الصوفي هو ميدان السجال بين الدين والفن وعليه نبحث في تلك التجارب الذوقية لدى المتصوفة لماهية الفن وادارك الجمال المثالي في ظل عالم متغير مرتبط بعوامل الزمان والمكان، فما هي حدود الامكان في التجربة الفنية والذوقية الصوفية و ما هي حدود التجاوز لما يسمى بعائق المنع (الديني) الكلمات المفتاحية: الفن الصوفي، الدين، الفن، التجربة الذوقية، السجال، الابداع

Abstract :

In this intervention, we seek to present a presentation on the essence of Sufi art, its origin, development and manifestations by presenting some models with the aim of clarifying the boundaries of the contact between what is artistic and what is religious, given that Sufi art is the field of debate between religion and art, and it is therefore looking at those taste experiences of the Sufis. What is art and realizes the ideal beauty in light of a changing world linked to the factors of time and place, what are the limits of possibility in artistic experience and mystical taste, and what are the limits of overcoming the so-called (religious) barrier of prevention

Keywords: Sufi art, religion, art, taste experience, polimic, creativity

1. مقدمة :

يرتكز الاتجاه الصوفي على ثلاث محددات وهي الإسلام والايمان والاحسان فيقوم الإسلام على الشريعة ويقوم الايمان على الطريقة ويقوم الاحسان على الحقيقة ، وكثيرا ما كان يثار الجدل في الوسط الديني حول المنهج الصوفي ، فكل طريقة مستحدثة تحدث نوع من الهزة فإذا كان المنهج الصوفي أو الطريقة بالأساس تطرحا سجالاتا فكرية و معتقدياً بالأساس فإنه يتحتم أن ينتقل إلى أحد مظاهرها والمتمثل في الفن الصوفي..، فبعد انتشار الفكر الصوفي ودنوه من الفن لاشتراكهما في خاصية صفاء النفس ونقاءها انعكست تلك الأفكار على تجارب ذوقية .

2. الفن الصوفي:

ينطلق من علاقة الصوفية بالفن من خلال النسق الذي يؤطرهما والمتمثل في التجربة الذوقية من خلال ما يسعى بلوغ السعادة ومحاولة إدراك الجمال المثالي وتذوق العمل الفني مما يعطي أثر ملموس على الاداء الروحي (الشيخ. 2021. الفن والتصوف من منظور فلسفة الدين) <http://maarefhekmiya.org> ، يقول أبو حامد الغزالي " أعلم أن سعادة الأدمي في معرفة الله تعالى ، وأن سعادة كل شيء في ما فيه لذته وراحته وراحة القلب إنما هي ذلك ، ولذة كل شيء في ما يقتضي طبعه ومقتضى كل شيء لما خلقه لأجله ... ولذة العين في الصور الجميلة ، ولذة السمع في الأصوات الحسنة والألحان المناسبة ، كذلك لذة القلب في خاصيته التي لأجلها خلق وذلك لمعرفة حقائق الأمور ... " (الغزالي ، د ت ، ص 52) إن السعادة المنشودة في نظرهم هي التي تحصل بالتسامي عن المادة وتخليص النفس منها ، باتخاذ الزهد سبيلا لذلك والإعراض عن الملذات الدنيوية.

السعادة عند الصوفية تتجاوز اللذة الجسمية بل هي سمو معنوي وسرور روحي مرتبط دائما بالشوق وهذا الشوق لا يكون إلا بتصور حضرة الحق ، يطرح مفكري الاسلام نظرية السعادة المرتبطة بالعقل والوجدان والتي تمثل الاتصال بين العبد وربّه من خلال مسألة التناسل ، تناسل القلب والروح ومحادثه الروح بعد عروجها إلى السماء النورانية وإبحارها في الملكوت بعد هجرها الجسم ويتم إدراك السعادة في المقام الأول بالتأمل والنظر ثم تأتي الحركات الجسمانية أو الأعمال البدنية في المقام الثاني.

يستخدم الصوفية عادة مجموعة من المصطلحات نحاول في هذا المقام إسقاطها للتعبير عن وجهة نظرهم من خلال تجاربهم الفنية وبسؤال بسيط ما لداعي الى هذه التمثلات ؟. ينطلق الفنان الصوفي من فكرة أساسية وهي ركن في منهجه وهي فكرة التجلي وهو ما يقابله عند الفنان بمفهوم الإلهام وهذا التجلي ما هو إلا حالة شعورية قوية تجعل منه غارق في عالم خاص يرتبط بمسألة المطلقية والنقاء والنورانية وهي من متطلبات المتصوف الذي يحاول الوصول إلى ما يسمى بذروة الاستغراق حتى يخالط عالم الحقيقة والتي تعتبر غايته القصوى والنهائية ومن هنا تتمايز التجربة الصوفية الفنية عن الحالات العادية بإظهار البواطن وكشف الأسرار في شكل صور وتعايير بهدف معرفة الحقيقة ولتحرر الروح وتطهيرها و تخليصها من كل ما هو مادي .

3.التجارب الذوقية الجمالية في الفن الصوفي :

يعرف عبدالقاهر الجرجاني أن الجمال على أنه نعوت الرحمة وألطف من الحضرة الإلهية والجمال من الصفات ما يتعلق بالرضا واللفظ (الجرجاني ،2013، ص ص 139 142) أي صفة تلاحظ في الأشياء تبعث في النفس عاطفة مميزة تسمى بعاطفة الجمال.

من هنا نعود إلى ما قاله الغزالي عن السعادة ولذة كل شيء في ما يقتضي طبعه ومقتضى كل شيء لما خلقه لأجله ... ولذة العين في الصور الجميلة، ولذة السمع في الأصوات الحسنة والألحان المتناسبة .

فالإنسان بطبعه محب للجمال فهو مُدرك فعلا لكن يصعب ضبطه لأنه مرتبط بالإحساس والذوق وبالتالي يرتبط الجمال بمسألة الذوق من خلال الإثارة والإعجاب في النفس

تتعدد تجارب الفنية الصوفية بل وتظهر تلك التأثيرات على الفنون المختلفة كالفن المعماري من خلال الزخرفة والتصميم ومن بين الفنون التي تطرح جدلا حتى عند المتصوفة بذاتهم فني الرقص والموسيقى.

تعتبر الرقصة المولوية الأكثر شيوعا حيث يرقص المتصوفة بشكل دائري على أصوات الموسيقى الصوفية والهدف من تلك الحركات هو التحرر من الدنيا ومشاغلاها والتقرب إلى الله بذهن صاف، لتنسب روحه داخل عالم آخر خالي من الهموم والمادية ورتقي بمشاعره إلى درجة الصفاء ليخرج من الدنيا إلى حضرة الوجود الإلهي قال الشيخ أحمد التيجاني واصفا حالة الدوران :

"أعلم أن أولياء الجن دورانهم حول الفعل وسر الفعل ونور الفعل و الروحانيون دورانهم حول الاسم وسر الاسم ونور الاسم والملائكة دورانهم حول الصفات وسر الصفات ونور الصفات وأولياء ادميين

داورنهم حول الذات وسر الذات ونور الذات قد علم كل ناس مشرهم والادمي أول مرتبة يطلع عليها الكشف مرتبة الجن ثم يترقى الى رابعة لا أحرمنا الله منها..."(حمدي، 2000، ص 21) للرقص في المجلس الصوفي شروط ينبغي توفرها.

4. العامل البشري أي الدرويش:

ويقصد به الشخص الفقر أو الزاهد المتصوف فهو أحد الواصلين والمطلعين على الأسرار الخفية يسعى من خلال الرقص إلى إيجاد الخالق المعشوق الأوحده والوصول إلى السكينة وتمسى بالوجد وهو التخلص من الحواس والادراك ويكون ذلك إلا من خلال تحرير النفس من مادياتها بواسطة الغناء والرقص طبعا في رأي بعض الفرق الصوفية وليس كلهم وبالتالي يعتقدون أنهم انتقلوا من علم اليقين إلى عين اليقين.

5. السماع :

أحد المصطلحات المستخدمة في الرقص الصوفي ومن الأمور الموجبة على المريد ، بحيث يبدأ المجلس بعزف الناي والذي يرمز فيه إلى روح الصوفي وحسب جلال الدين الرومي¹ أحد رواد الصوفية فان السماع هو من يحرك الوجد في روح السالكين والمريدين ويدفع إلى صفاء القلب فرمزية الناي تكون في بداية السماع

6. الحركات الراقصة :

للحركات رمزية خاصة فهي ذات دلالات فحركة الدرويش هي تعبير عن الاستماع الكوني وهي حالة من الاحساس بوجود الخالق .

تتمثل حركات الرقص المولوية من خلال بعض الممارسات تبدأ بإنشاد ترانيم وبدون عزف، يلها مباشرة عزف الناي ليثير بها العاشقين واستجابة لنداء الناي يرفع الشيخ يديه متأثرا فيضرب بهما الأرض اذانا ببداية عزف الموسيقى ودخول الدرويش لأداء الدوران والرقص ، بحيث يدخلون ساحة الرقص

¹ أشهر المتصوفين هو محمد بن محمد بن الحسين البلخي وسمي أيضا بجلال الدين الرومي من مواليد السادس من ربيع الأول 604 هـ الموافق لسنة 1207 م ، عاش جلال الدين الرومي حياة متنقلة من بغداد الى مكة فالشام واخير بقونيه التركية التي استقر فيها وعرف التصوف فيها توفي بها في 5 جمادى الثاني عام 672 هـ

ويدرون فيها عكس الساعة ثلاث مرات لدلالة على تخلص من قيود الزمن وهي اشارة لولادة جديدة بعد معاناة كبيرة أما ثلاث دورات فهي ترمز إلى مراحل التقرب إلى الله عز وجل و المتمثلة في طريق العلم والمعرفة طريق الرؤيا طريق الوصال أو المشاهدة (محمد حسين و محمد حسين ، ب ت، ص 07) بالإضافة إلى ممارسة طقسية أخرى كخلع المعاطف لدلالة على تحقيق المراد والانتصار وتحقيق التطهر من الدنيا والكشف عن اللباس الابيض الذي هو اشارة على التحرر من الماديات .
يبدأ الدرويش في الرقص بعد أخذ الإذن من الشيخ والبركة ويحدث ذلك بعد تقبيل الشيخ عمامة كل منهم وتكون رقصتهم بضم أيديهم إلى صدورهم لأمسين أكتافهم براحة أيديهم.



صورة 01 تعبر عن بداية الرقصة

ثم يأخذون بالدوران ببطيء ثم فتح أيديهم كأجنحة اليد اليمنى في اتجاه السماء واليسرى في اتجاه الارض وذلك لدلالة على قطف ثمار النعمة و نثرها (فريز تر :أبو زيد، 1981، ص 45)
تشكل حركة الدوران عندهم ما يشبه حركة دوران الطبيعي للكواكب حول الشمس والتي تمثل القانون الكوني

تنتهي الرقصة ببعض التحية و تتمثل في قرع الطبول ونفخ البوق والتي تدل على المراحل الايمانية للصوفي كما تشير إى خاتمة الحياة الدنيوية (مهدي سلامة ، ب ت ، ص 09)
إن الابداع الفني الصوفي لا يقتصر فقط على التمثلات الجسدية من الرقص بل أيضا إلى مكان العرض من أشكال تعبيرية وفنية لها رمزية خاصة وكل عنصر من عناصر المكان له دلالة تتجلى في رؤية

استطبيقية من خلال مجموعة من المكونات تشمل الشكل والألوان وهي بذلك تتجاوز محاكاة الطبيعة بل تغوص فيما وراءها ،

واحدة من بين الفضاءات العرض نجد ما يسمى بالتكية وهو ما يقابل اللفظ عندنا بالزاوية وتكية لفضة من اللغة التركية يرجح معناه بالانكفاء والاسترخاء وهي تدل على الراحة والاعتكاف وكان هذا الفضاء يضم عائلة الشيخ واتباعه و مريديه وعابري السبيل بحيث تتمظهر الزخرفة وحجم المكان ليناسب حجم المناسبة من صلوات أو رقص أو موسيقى وقد تم عكس تلك الأفكار والمعتقدات استعملت فيها نصوص مقدسة ذكر فيها اسم الله أو الانبياء أو الاولياء بالإضافة الى زخارف من الطبيعة ،

من الناحية الفنية و الجمالية يمكن توصيف التكية على أنها مسرح مصغر أو قاعة رقص تتميز في تشكيلها بأرضية ملساء وعلى جوانب قاعات مستديرة مفصولة بأعمدة اسطوانية تستضيف المشاهدين (مهدي سلامة ، ب ت ، ص ص 10 12)

التكية عموما هي قاعة مربعة الشكل تعلوها قبة محورية ويكون بداخلها ضريح ،تشكل القبة الدائرية في المعتقد الصوفي منحى الديمومة وهو ما يعكسه الخطوط الزخرفية لتشكل نقطة بداية كل حلقة دائرية منها لتصل إلى نقطة ما وهكذا إلى ما لانهاية للإيحاء بالحركة وتنتهي إلى مركز القبة وهذا مستوحى من الآية القرآنية التي تتحدث عن بدأ الخلق ثم إعادته



صورة قبة تكية بإسطنبول تركيا

ولإن كانت التكية فضاءً للعرض أيضا فقد ضمت مكانا للفرقة الموسيقية التي تجلس في آخر القاعة مقابل المحراب فالموسيقى والرقص من التعابير الفنية التي يثار حولها الجدل بين التحريم والاجازة ولأبأس

أن نعرج على الموسيقى الصوفية والتي كانت منطلقاتها من حضور النغم في الطقوس التعبدية الدينية كالأذان وتراتيل القرآن وتكبيرات صلاة العيد بالإضافة إلى المقامات.

بدأت الموسيقى الصوفية بحفلات الذكر في مناسبات المولد النبوي والتهاليل في مناسبات دينية أخرى مرتكزتا على ما أبدعه شعراء الصوفية في هذا المجال وبما أن الطرق الصوفية متنوعة تنوعت معها الموسيقى التي تتبع نظام معين أي حسب رؤية المتصوف والطريقة التي يتبعها، فتلك الموسيقى تساهم في عملية الوجد عندهم أي فقدان الاحساس بالواقع الخارجي وينسى المتصوف جسده في حفلة الإيقاع الموسيقية.

من الآلات المستخدمة نجد النفخية الإيقاعية والوترية بينما تكتفي بعض الفرق الصوفية بالدف فقط وهو يرمز أيضا إلى الحركة الدائرية اللامتناهية للكون شأنه شأن القبة والخطوط الزخرفية فيها كما ذكرنا من قبل بينما يشير عدد السلاسل المثبتة إلى عدد أسماء الله الحسنى بينما تستخدم بعض الفرق الآلات الأخرى كالنقارة في شبه القارة الهندية. (محمد حسين و محمد حسين ، ب ت، ص 11)

عرف الغناء الصوفي على أنه الوجود الإلهي باحثين عن الحب المطلق والنهائي اللامتناهي من خلال المنجاة دون وسيط وهنا نعرض بعض الابيات التي أنشدها سامي يوسف من التراث الصوفي بعنوان مناجاة :

رياه هداك مازالت أسير	وعلى العصيان ما عدت قدير
ف أنردروبي واغفر ذنوبي	فانا الفقير
قد عاد القلب في الدرب يسير	فرحا مشتقا لله يطير
فرجاه رضاك يوم لقاك	انت القدير
فارجم عبدا ناجاك	يا الله يا الله
انت الرجاء من الهدى	يا الله يا الله

من حيث شكل الموسيقى فهي تتميز بالتنوع حسب البيئة الحاضنة و حسب أيضا الطريقة فلكل طريقة أوراها و أشعارها الخاصة وحتى أسلوبها في الرقص والغناء و إن تشابهت في بعض الاحيان، لكن يبقى التأثير الاكبر للموسيقى العثمانية باعتبار أن الدولة العثمانية كانت تسيطر على المشرق العربي وأجزاء من المغرب العربي أيضا والملاحظ في الوقت الراهن هو إعادة بعث نشاط الموسيقى الصوفية بعد انحسارها بعد سقوط الدولة العثمانية وتوزيعها بصورة تجارية وحديثة .

7. حدود المنع وفكرة التجاوز

الصوفية كمنهج وطريقة بحد ذاته لقي معارضة من قبل بعض شيوخ الاسلام فتجد فتاوى تلغى هذا الطرق من بين الفتاوى نجد ابن باز يقول :

" وأكثر ما يؤخذ على الصوفية أنهم ليسوا بمستنين بالكتاب والسنة بل لهم طرق وعوائد وقوانين ونظم اتبعوا فيها مشايخهم وقلدوا فيها أشياخهم ولو خالف شرع الله، ولو كانت مخالفة للقرآن والسنة، فلماذا أنكر عليهم أئمة العلم وشنعوا عليهم بهذه الطرق المخالفة للشرع، ولكنهم أقسام في ذلك وأنواع متنوعة، منهم من هو بعيد من شرع الله، ومنهم من هو قريب، ومنهم من هو بين ذلك. فالواجب على أهل العلم: أن يعرضوا أقوالهم وطرائقهم وما كانوا عليه على كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام فما وافق ذلك قبل لأنه وافق الشرع لا لأنه طريق فلان أو طريق فلان أو رأي الشيخ فلان، لا، ما وافق الشرع قبل لأنه وافق الشرع وما خالفه رد لأنه خالف الشرع .

والواجب نقض هذه الطرق والقضاء عليها والغاؤها وأن يكون الجميع تحت شريعة الله واتباع محمد ﷺ، هو شيخهم وإمامهم لا يكون لهم شيخ آخر سواه يحكمونه، بل هو محكم فما وافق شرعه قبل وما خالفه رد، لا من الصوفية ولا من الحنفية ولا من المالكية ولا من الشافعية ولا من الحنبلية ولا من الظاهرية ولا من غير ذلك.(ابن باز ، فتوى ، [/https://binbaz.org.sa/fatwas/3237](https://binbaz.org.sa/fatwas/3237))

8. وفي فتوى أخرى يقول :

" ليس للطرق الصوفية أصل في الشرع فيما نعلم، بل هي محدثة وبدع منكرة، وما كان فيها من ذكر شرعي أو عمل شرعي فما جاء به الكتاب والسنة يغني عنه، فالواجب على أهل الإسلام أن يتلقوا علومهم وأعمالهم عن كتاب الله، وعن سنة رسوله ﷺ لا عن الطرق الصوفية ، وما قد يوجد في بعضها من أعمال طيبة أو أقوال طيبة فإنما كانت كذلك لكونها متلقاة عن الله وعن رسوله، لا عن الشيخ فلان أو صاحب الطريقة فلان، لا، فالحق الذي في أي طريقة من طرق الصوفية إنما يقبل؛ لأنه جاء عن الله وعن رسوله لا لأنه مأخوذ عن الصوفية أو عن شيخ الصوفية فلان أو فلان.(ابن باز ، فتوى ،

([/https://binbaz.org.sa/fatwas/3237](https://binbaz.org.sa/fatwas/3237))

إذا كان المنهج في حد ذاته محط سجال ومحط إلغاء من قبل الغير فالأمر كذلك ينسحب على العمل الفني فالرقص والغناء وقد يقصد به الانشاد أيضا والموسيقى هو أمر مرفوض في الشريعة الاسلامية وحتى عند بعض الطرق الصوفية فهذا ليس هو الأسلوب لتحقيق الغاية وهو التقرب من الوجود الالهي . في خضم هذا التنازع على التحريم والاجازة نتساءل عن فكرة التجاوز التي قام عليها المتصوفة ومن هنا تستعرض الحوار الذي دار بين جلال الدين الرومي وبين واحد من المعترضين والذي انكر عليه الموسيقى فهي مرفوضة حسب الشريعة الاسلامية فأجابه الشيخ بأن صوت الباب الذي نسمعه هو صوت باب الجنة فرد عليه المعترض نحن أيضا نسمع الصوت ذاته لكننا لا ننفعل مثل مولانا (يقصد جلال) فرد عليه ما نسمعه نحن هو صوت فتح باب الجنة وما نسمعه هو صوت الاغلاق(الوائلي ، ب ت ، ص 09) ويتضح من خلال ما سبق أن الفرق التي تستخدم الفن فهو يعبر عن أحد آليات عملها لتحقيق أهدافها ومنهاجها وبالتالي تتجاوز فكرة التحريم والمنع فالرمزية التي تعرض من خلال الموسيقى أو الرقص هي التي تعبر عن الطريقة والحالات المعنوية والروحية للمتصوف .

"إن الله جميل يحب الجمال " يعتبر منطلق لإدراك معاني الروحية والقيم الاسلامية والمشاعر الصوفية فكما استخلصنا أن الصوفية غايتهم إدراك الجمال الحقيقي على اختلاف الطريقة فإحساسهم لا يتوقف عند العالم الملموس بل يسمو إلى عالم نوراني مقدس تتجلى فيه كل القيم الفاضلة والأزلية .

9.قائمة المصادر والمراجع :

القواميس:

1. أيمن حمدي ، قاموس المصطلحات الصوفية ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000.

الكتب :

1. أبو حامد الغزالي ، جواهر القلوب، دار الأرقم للطباعة والنشر ، بيروت ،
2. جيمس فريز، تر:أحمد أبوزيد، الغصن الذهبي دراسة في السحر والدين ، الهيئة المصرية العامة للترجمة والنشر ، ج1، 1981.
3. عبد القاهر الجرجاني ، التعريفات ، تحقيق عبدالرحمن المرعشلي دار النفائس ط1 بيروت 2013 .

المجلات:

1. اياد محمد حسين و عامر محمد حسين ، الرقص الصوفي ورمزية الحركات الراقصة المولوية أنموذجا ، مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية ، المجلد 4 ، العدد 03 ،

2. عامر عبد زيد الوائلي ، الموسيقى الدينية وتجلياتها : الموسيقى الصوفية أنموذجا ، قسم الفلسفة والعلوم الانسانية ، مؤسسة مؤمنون بلا حدود.

3. ممدوح الشيخ ، الفن والتصوف من منظور فلسفة الدين ، مجلة المعارف الحكمية ، معهد الدراسات الدينية والفلسفية . منشور على الانترنت : تاريخ الزيارة 2021/03/01 الساعة 19:18

<http://maarefhekmiya.org/wp-content/uploads>

4. هيام مهدي سلامة ، التصوف وأثره على الفن الاسلامي ، مجلة العمارة والفنون ، العدد السابع .

المواقع :

1. فتوى ابن باز منشورة على الأنترنت تاريخ الزيارة 2021 /02/02 توقيت 20:40

[/https://binbaz.org.sa/fatwas/3237](https://binbaz.org.sa/fatwas/3237)